بسم الله الرحمن الرحيم

الاستشراق البريطانيّ
نواة أيديولوجيا الاستعمار

الشيخ حسن أحمد الهادي[1]

تكشف مقاربة «الفكر الاستشراقيّ»، على تنوّع مجالاته وعلى امتداد مراحله التاريخيّة، عن وجود نواة فكريّة متجذّرة وموحّدة، وأيديولوجيا مشتركة، تتكرّر في الأعم الأغلب في الدراسات النظريّة والبحثيّة، والمشاريع الاستشراقيّة المتنوّعة في العالم، على الرغم من اختلاف التيّارات والمراحل والمدارس. وتتمثّل هذه النواة في الخلفيّة الفلسفيّة والفكريّة، وفي البنية المعرفيّة عندهم، التي ترتبط بأصل النظرة إلى الحياة والإنسان، وفي عمليّة الاندماج في المشاريع الكبرى للعالم الغربي بشكل مباشر أو غير مباشر، علمًا بأنّه قد لا تكون البدايات الأولى لبعض المستشرقين أو المدارس والاتجاهات الاستشراقية مندمجةً ضمن منظومة الحركة الاستعماريّة ومشاريع الهيمنة الغربية المتغوّلة التي اجتاحت الشرق وسعت لتغيير هويّته وسلبه مقوّمات حضارته.

لكن هذا -وفقًا لوحدة النواة المذكورة- لا يلغي تحقّق التلاقي بين الاستشراق وبين الحركة الاستعماريّة؛ إذ تثبت الوقائع التاريخية أنّه بعد أن ظهرت بوادر الاستعمار الأوروبيّ للعالم الشرقيّ، واستعمرت فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وغيرها من

[1]- مدير التحرير.

الدول الغربيّة العالم الشرقي والإسلاميّ، برزت الحاجة عندهم إلى معرفة خصائص الشعوب وثقافاتها، وفهم عقليّات الناس وأنماط تفكيرها، وتشخيص عناصر القوّة والضعف في بنيانها السياسي والثقافي والاجتماعي والتربوي والاقتصادي، ما يحقّق التواصل الفعّال المبني على المعرفة مع البيئة الجديدة بكل خصوصيّاتها وآفاقها الفكريّة والثقافيّة والاجتماعيّة. ولا شك بأنّ الوصول إلى هذه المعطيات يسهّل إدارة الدول والمناطق المستعمرة تمهيدًا للسيطرة الكاملة عليها. فوجدت -هذه الدول- في الحركة الاستشراقيّة ضالّتها المنشودة التي تساعد على تحقيق أهدافها الاستعماريّة.

وهكذا تحقّق التلاقي بين الاستعمار والاستشراق، ودخلت الحركة الاستشراقيّة في مرحلة جديدة هي المرحلة الاستعماريّة...، وهو ما أكّده العديد من المتخصّصين في دراسة الاستشراق من أمثال نجيب العقيقي، حيث قال: «فلما أرادت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسيّة بدول الشرق والاغتراف من تراثه، والانتفاع بثرائه، والتزاحم على استعماره، أحسنت كل دولة إلى مستشرقيها، فضمّهم ملوكها إلى حاشياتهم أمناء أسرار وتراجمة، وانتدبوهم للعمل في سلكي الجيش والدبلوماسيّة إلى بلدان الشرق، وولّوهم كراسيّ اللغات الشرقيّة في كبرى الجامعات والمدارس الخاصّة، والمكتبات العامّة، والمطابع الوطنيّة، وأجزلوا عطاءهم في الحلّ والترحال، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضويّة المجامع العلميّة»[١]. ويقول آخر: «هكذا اشتغل فريقٌ من المفكّرين بمجال الاستشراق، مدفوعين من قبل حكوماتهم التي دعتهم إلى مساعدتها على استعمار الشرق، فكانوا عونًا لها مخلصين في تقديم المعلومات التي احتاجت إليها، وهي في طريقها إلى اجتياح الشرق، معلنةً الهيمنة عليه لفترةٍ من الزمن تُعينْ على امتصاص خيراته، وعلى إيجاد البديل عند الخروج، وعلى إضعاف مكامن الخطر بالنسبة لهم»[٢].

ويتميّز الاستشراق البريطاني -من بين النماذج والمصاديق الكثيرة في تاريخ الاستشراق والمدارس الاستشراقية- بارتباطه الوثيق والمبكّر بالمصالح الاستعماريّة والسياسيّة في العالم العربي وفي الهند، حيث انطلق أكاديميًّا من تأسيس الكراسي العلميّة لتدريس اللغة العربيّة في الجامعات البريطانيّة الكبرى مثل أكسفورد

[١]- العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج٣ ، ص١١٤٩.

[٢]- النملة، علي بن إبراهيم، الاستشراق في الأدبيات العربية، ط١، ١٩٩٣م، ص٤٠.

وكامبريدج، ليتشكّل لاحقًا جيل من الخبراء والمترجمين، حيث ضمّ الاستشراق البريطاني أسماء لامعة في البحث والترجمة، تراوحت أعمالهم بين التحقيق العلمي البحت، وبين التوظيف السياسي المباشر، ودراسة مجتمعات الشرق عن قرب؛ ليكونوا لاحقًا في خدمة القرار السياسي والمخابراتي، والمساهمة المباشرة في إعادة رسم خرائط المنطقة سياسيًّا واقتصاديًّا وجغرافيًّا، بعناوين دبلوماسية خادعة كالاتفاقيات والمعاهدات ونحوها.

نذكر من هؤلاء المستشرقين في المدرسة الاستشراقيّة البريطانيّة، جورج سيل (**George Sale**) في القرن الثامن عشر، حيث وضع واحدة من أشهر الترجمات المبكرة للقرآن الكريم إلى الإنجليزيّة، وإدوارد ويليام لين (**Edward Lane**)، ووليم موير (**William Muir**) في القرن ١٩، واشتُهر بكتاباته الموسّعة حول السيرة النبويّة وتاريخ الخلافة الإسلاميّة المبكرة. وتوماس أرنولد (**Thomas Arnold**) القرن ١٩-٢٠، صاحب كتاب «الدعوة إلى الإسلام»، وأحد المحرِّرين الأوائل لـ«دائرة المعارف الإسلامية». وآرثر آربري (**Arthur Arberry**) الذي ترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية بأسلوب أدبي رفيع. ومونتغمري وات (**Montgomery Watt**) في القرن ٢٠، واشتُهر بكتبه التاريخيّة التحليليّة مثل «محمّد في مكة» و«محمد في المدينة». وبرنارد لويس (**Bernard Lewis**)، وركّز على التاريخ السياسي والاجتماعي للشرق الأوسط والدولة العثمانيّة...

وقد وثّق أستاذ الدراسات العربيّة في جامعة إكستر ليزلي ماكلوغلن في كتابه: «المستشرقون البريطانيون في القرن العشرين» أعمال شريحة واسعة من البريطانيين الذين اهتمّوا بالشرق والعرب عبر القرون. وبعد توصيفهم بأنّهم جماعات من الباحثين والأكاديميّين والرحالة والدبلوماسيّين والجواسيس والمؤرّخين، يربط دورهم بالتوازي مع التوسّع الاستعماري البريطانيّ، وأنّهم كانوا قريبين من دوائر صنع القرار، وقد احتلّوا وظائف ومراكز في وزارات الخارجيّة والسفارات، وانخرطت شريحة واسعة منهم في صلب العمل التجسّسيّ والعسكريّ.

فقد «ضَمَّ الاستشراق السياسي خليطًا من الجامعيّين ورجال الأعمال والعسكريّين والموظّفين الاستعماريّين والمبشّرين والصحفيّين والمغامرين، الذين كان هدفهم

يقتصر على التعرّف إلى الحقل المزمع احتلاله، والولوج إلى أفئدة الشعوب من أجل تأمين انصياعها للقوى الأوروبيّة على نحوٍ أفضلَ»[١].

وبالمحصّلة فقد شكّلوا شبكة استخبارية واسعة متنوّعة الأدوار والأهداف تحت ستار البحث العلمي والاستشراق، والتعرّف على الشعوب والقبائل الأخرى في الشرق، ولا ننكر أنّها قد لعبت دورًا بالغ الأهميّة للاستعمار البريطاني، إذ كانت بمثابة أعينه وآذانه وأصابعه في المنطقة العربيّة.

يعتبر توماس أدوارد لورنس (الملقب بلورنس العرب) (١٨٨٨-١٩٣٥م) في طليعة الرجال الذين قدّموا لبريطانيا والصهيونية معًا خدماتٍ تعجز عن تحقيقها مؤسّساتٌ كبيرةٌ، لذلك يُعتبر من أشهر رجال بريطانيا وأكثرهم خدمة لمشاريعها. وتذكر العديد من المصادر والوثائق أن لورنس تعرّف على جميع المواقع الاستراتيجية التي كانت موجودةً في المنطقة بأسرها. كيف لا، وهو الذي تجوّل في جميع أرجاء المنطقة سيرًا على الأقدام، يشاهد مواقعها، ويدقّق ويبحث[٢]، حتى «أصبح مرجعًا للمعلومات الدقيقة عن منطقة الشرق الأوسط، وطبيعة تكوينها ومعالمها الطوبوغرافيّة»[٣].

ولقد بات من الواضح أن لورنس وأمثاله من المستشرقين قد أدّوا أدوارًا بارزة وخدمات كبيرة ومتنوّعة لدول الاستعمار تحت ستار البحث العلمي والعمل الاستشراقيّ؛ ولهذا وُصف بأنّه كان دماغ بريطانيا في المنطقة العربيّة، وبرز نشاطه واضحًا في المجال السياسي والعسكري والاجتماعي والاستخباري، دون أيٍّ تقصير أو إهمال.

ولله الحمد

[١]- أنور عبد الملك في مقال عنوانه: «الاستشراق في أزمةٍ» وهو فصلٌ من كتابه: الجدلية الاجتماعية

https://www.iicss.iq/design/img/fixed-head-markaz-logo.png.

[٢]- بتصرّف عن: د. صالح زهر الدين في دراساته حول: العسكرة الاستشراقية وانعكاساتها الكوارثية على العرب والمسلمين، نشرها موقع المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

[٣]- الفاتح، زهدي، «لورنس العرب على خطى هرتزل»، دار النفائس بيروت، ط١، ص١٤-٣٣.